مجموع الإمام القاسم عليه السلام

مديح القرآن الكبير

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي منَّ علينا بوحي كتابه وتنزيله، وبما وَلِيَ تبارك وتعالى من أحكامه وتفصيله، بالإعراب والتبيين، وبما جعل فيه من دلائل اليقين، على وحدانيته ودينه، وبما نوَّر في ذلك من تبيينه، وقوَّم سبحانه من صراطه وسبيله، بما شرع فيه من تحريمه وتحليله، وأقام به على كل صالحة مرشدة من دليله، وفصَّل سبحانه من كلامه فيه وقيله، ومن أصدق من الله قيلاً، وأحكم لكل شيء تفصيلاً، فنزله بنور هداه تنزيلاً، فلم يغب في ذلك كله عنه من الهدى غائب، ولم[1] يَخب من طلاب الهدى[2]به ولا فيه قط خائب، فيعدم من الهدى مراد مطلوب، ولا يحتجب عن الطالب له من هداه محجوب، أنزله الله بتفصيله إنزالاً، فقال تبارك وتعالى، فيما نزَّل منه[3] لرسوله، صلى الله عليه وعلى أهله: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ﴾ [الأنعام:١١٤]. فجعله منه بفضله ورحمته وحياً منزلاً، وقال سبحانه فيه: ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الأعراف:٥٢]. وقال سبحانه في تنزيله، ومّا منَّ به فيه[4] من تفصيله: ﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [فصلت:١-٤]. فجعله سبحانه لعباده بشيراً ونذيراً، ووضعه للمؤمنين برحمته سراجاً منيراً.

---

(١) في (ب): ولا.

(٢) في (أ) و (ب): الهداية ولا.

(٣) في (أ) و (د): ولا يحتجب عن الطلب له في هداه فيه محجوب. و (ب): ولا يحتجب عن هداه فيه محجوب.

(٤) سقط من (ج) و (د) و (هـ): فيه.

[أهل الذكر]

فمن أراد سرَّ الأسرار، وعلانيةَ مكتومِ الأخبار، التي أظهرها الله لصفوته من الأبرار، (1) وخصَّ بعلمها من انتجبه لها(2) من الأخيار، فحباهم بفهمها واستخراجها، ودلَّ منهم بها من استدلَّ على منهاجها، فكشف لهم منها (3) عن أنوار النور، وبيَّنَ لهم منها ما التبس على غيرهم من الأمور، فظهر لمن هَداه الله بهم منها(4) مكتومُها، وأسفر بعون الله لمن طلب علمها معلومُها، فسكنت إليها الأنفس، ونطق بها البكم الخرس، فقالوا: بها ناطقين، ونطقوا بها(5) صادقين، وَحَيوا بروحها بمنٍّ الله من كل هلكةٍ وموت، وتحركوا بحياتها من بعد خمود وخفوت، ومشوا بنورها مبصرين في الناس، وخرجوا بضيائها من الظلمات والالتباس، كما قال سبحانه: ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [الأنعام:١٢٢].. وفيما بَيَّن الله سبحانه من آياته، لمن آمن به(6)، ما يقول تبارك وتعالى: ﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [آل عمران:١١٨].

وفي أن وحي الله حياة من أمر الله وروح، ونور وهدى ورشد ساطع يلوح، ما يقول سبحانه في وحيه، وفيما نزَّل(7) منه على نبيه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾

(1) في (ج): الأنوار.

(2) في (ب): لنا.

(3) في (ب) و (د): بها.

(4) سقط من (ب): منها.

(5) في (ج): عنها.

(6) سقط من (أ) و (ب) و (د): لمن آمن به.

(7) في (ب): ينزل.

[الشورى:٥٢-٥٣]. فجعله روحاً مُحيياً لمن قَبِلَه، ونوراً مضيئاً لمن تأمَّله، فنحمد الله على ما جعل فيه لأهله [١] من الحياة، ووهب لهم به من الفوز والنجاة.

وقد ظن من ليس بِبَرٍّ ولا تقيّ، من كلِّ ضلِّيلٍ تائه [٢] شقي، بجهله وضلاله واحتياره، وقلّة علمه بكتاب[٣] الله وأسراره، وعندما اقتصر عليه من نظره، ونقصِ فكره وتحيُّرِه، ولتركه[٤] علم ما خفي عليه من آياته، عند من جعله الله معدناً لعلم خفياته، ممن انتجب واصطفى، وجَعل له المترلة - عنده[٥] - الزلفى، أن في كتاب الله تناقضاً واختلافاً، وأنه إنما اعتسف القول فيه اعتسافاً، فقاده جهله بالكتاب، إلى جهل رب الأرباب، لأن من جهل صنع الله للكتاب في آية واحدة من آياته، كمن[٦] جهل صنع الله في أرضه وسماواته، لا فرق بين ذلك في حكمة ولا حكمٍ، وواحدٌ[٧]ذلك كله في الخطيئة والجُرم، فمن جهل أن كل ما [٨] سمع من آية الكتاب فوحي الله وتتريله، وأن كل آية منه فلا[٩] يحتملها ولا يحكمها إلا حكمة الله[١٠] وتفصيله، فهو بكتاب الله من الجاهلين، وعن حكمة الله[١١] فيه من الضالين، بل هو بالله في جهله ذلك إن جهله من الكافرين، ولأكثر[١٢] نعم الله عليه فمن غير الشاكرين، والحمد لله فيه لا شريك له رب العالمين، ونعوذ بالله في كتابه من عماية العمين، ونسأله أن يجعلنا لهداه فيه من

---

(١) سقط من (ج): لأهله.

(٢) سقط من (ج): تائه:

(٣) في (د): لكتاب.

(٤) سقط من (ب): ولتركه.

(٥) في (ب): عند الله.

(٦) في (أ): فقد جهل.

(٧) في (ب): واحد.

(٨) في (ج): أن ما كل سمع في آية من آيات الكتاب وحي.

(٩) في (أ): ولا يحتملها فلا يحكمها. وفي (ب): ولا يحتملها ولا يحكمها.

(١٠) سقط من (ب): الله.

(١١) في (ب): حكمه فيه. وفي (أ) و (هـ): وعن حكم الله فيه.

(١٢) في (ج): ولأكبر.

المتبعين، وبما نزل فيه من حكمته ورحمته من المنتفعين.

وفيما أمر به من اتباعه، في الإنصات له واستماعه[1]، ما يقول الله سبحانه لرسوله، صلى الله عليه وعلى أهله: ﴿ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الأنعام:١٠٦].

وفي ذلك أيضاً ما يقول لرسوله، صلى الله عليه وعلى أهله: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الجاثية:١٨].

وفي الإنصات والاستماع ما يقول سبحانه: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾ [الأعراف:٢٠٤].

[القرآن عظة ونور]

وفيما في تنزيل الله من الموعظة والنور، وما جعله عليه من الشفاء لما في الصدور، ما يقول سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [يونس:٥٧] ، فنسأل الله أن يجعلنا وإياكم إلى ما فيه من الهدى والنور من المهتدين.

وفي تبيين ما نزّل الله في كتابه من الآيات، وجعل فيه من المواعظ الشافيات، لمن قبِلَه وفهمه عن الله جل جلاله، من عباده البررة المتقين الأتقين [2] ما يقول سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ

---

(١) سقط من (أ) و (ب) و (د): واستماعه.

(٢) سقط من (أ): الأتقين.

عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ [النور:٣٤-٣٥]. فمثّلَ سبحانه ما في كتابه من نوره وهداه، وما وهب - من تبيينه فيه برحمته - أولياه، بمشكاة[1] قد ملئت نوراً بمصباح في زجاجة نقية ككوكب[2]دريٍّ، ومثّلَ كتابه بما فيه من هداه بنور مصباحٍ زاهرٍ مضيٍّ، قد نقيا من كل ظلمة وغلس، [3] وصفيا من كل كدرٍ ونجسٍ، فأعلمنا سبحانه بأنه هو نور السماوات والأرض ومن فيهما، إذ هو الهادي لِكُلٍّ مَن اهتدى من أهليهما.

وقد قيل في التفسير: إن المشكاة هي الكوة، التي يجمع[4] ما فيها كما يجمع ما فيه السقا والشكوة، [5] فنور هدى كتاب الله محفوظ[6] بالله مجتمع، وكل من وفقه الله لرشده فهو لأمر الله كله فيه متبع، لا[7] يسوغ لأحد عند الله من خلافه سائغ، ولا يزيغ عن[8] حكم من أحكام الله فيه[9] إلا زائع، يُزيْغُ اللهُ قلبَه بزيغه عنه، ويفارق من الهدى بقدر ما فارق منه، كما قال علامِ الغيوب: وخلاّق ما ضل[10] واهتدى من القلوب:﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[الصف:٥].

[القرآن الحكم الفصل]

وفيما جعل الله في كتابه من الحكم والفرقان والفصل، ما يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾ ﴾ [الطارق:١٣-١٤]. والفصل فهو الحكم

(١) في (ب) و (ج) و (د) و (هـ): مشكاة.

(٢) في (ج): كوكب.

(٣) في (ب) وغيس. والغلس: ظلمة آخر الليل.

(٤) في (أ) و (د): تجمع.

(٥) الشكوة: هي وعاء من جلد كالقربة يبرد فيه الماء.

(٦) في (ج): تحتفظ.

(٧)سقط من (أ) و (د): فيه. وفي (ب): متبع، ولا.

(٨) سقط من (ب): عن.

(٩) سقط من (ج): فيه.

(١٠) في (ب) و (د): ما أضل..

الجد الرشيد، والهزل فهو اللعب والكذب والتفنيد، وفي ذلك ومثله، وما نزل الله فيه من فصله، ما يقول سبحانه: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ﴾ [الفرقان:١].

والفرقان فهو: التفصيل من الله فيه لرشده. فمن لم يرشد بكتاب الله فلا رشد، ومن ابتعد عن كتاب الله فَبَعُدَ، كما بعدت عاد وثمود، ومن لم يهتد في أمره[1] بكتاب الله وتنزيله، لم يهتد بغيره[2] للحق أبداً ولا لسبيله، [3] بل لن يبصر ولن يرَى، للحق عيناً[4] ولا أثراً، ولا يزال – ما لم يراجعه – متحيراً ضالاً، ومعتقداً – ما بقي كذلك – حيرةً وضلالاً، يُعد نفعاً له ما يضره، وثقةً عنده أبداً مَن يغرُّه، مرحاً لهلكته فرحاً، يرى غشه له براً ونصحاً، يخبط بنفسه كل ظلمة وعشواء، [5] متبعا في دينه وأمره كله لما يهوى، إن قال مبتدياً عسَّف، أو حكى عن غيره حرَّف، افتراءاً وبهتاناً، وقسوة ونسياناً، أثرة منه للباطل على الحق، ونقضاً لما عقد عليه من العهد والموثق، كما قال الله سبحانه: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ لَعَنَّـٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَـٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٣ ﴾ [المائدة:١٣].

فالويل كل الويل لمن لم يكتف في أموره وأمور غيره بتنزيل[6] رب العالمين، كيف عظم ضلاله وغيه؟! وضلت أعماله وسعيه، فَيَحْسَبُه محسناً وهو مسيء، ورشيداً في أمره وهو غوي، كما قال سبحانه لرسوله، صلى الله عليه وعلى أهله: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ

(١) في (أ) و (د): أمرِ.

(٢) في (أ) و (د): بغير الحق.

(٣) في (أ): ولا سبيله.

(٤) في (أ) و (د): غيباً ولا يرا (وهو تصحيف).

(٥) سقط من (ب): وعشواء.

(٦) في (ب): بتنزيل الله رب.

يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الكهف:١٠٣-١٠٤]، أفليس هذا هو الذي ظن والله المستعان ضُرَّهُ له نفعاً؟! وحسب ضلالته هدى، وهدايته إلى الجنة ردى، كما قال سبحانه: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الزخرف:٣٦-٣٧].

وفي القرآن وأمره، وما عظَّم الله من قدره، ما يقول سبحانه: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الحشر:٢١].

وفيه وفي خلاله، وما مَنَّ الله[١] به من إنزاله، ما يقول تباركت أسماؤه لمن نزله عليهم[٢] كلهم جميعاً معاً: ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾ [الرعد:٣١].

أو لم يسمع من آمن[٣] بالله سبحانه في آيات نزلها [٤] من الكتاب: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [إبراهيم:٥٢]، وفي مثل ذلك بعينه، وفيما[٥] أنزل من تبيينه، ما يقول سبحانه: ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [آل عمران:١٣٨]. ويقول سبحانه: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل:٨٩]. فجعله سبحانه تبياناً وحجة على من فسق وكفر، وهدى ورحمة وموعظة لمن اتقى وشكر.

---

(١) في (ب): وفي جلاله وما منَّ الله. وفي (ج): جلاله. وسقط من (ج) و (د) و (هـ): الله.

(٢) في جميع المخطوطات: عليه. ولعلها كما أثبت.

(٣) في (أ): من قول الله. وفي (ب): أو لم تسمع من أمر الله قول.

(٤) سقط من (ب) و (د): نزلها.

(٥) في (ج): وما أنزل الله من تبيينه. وفي (أ) و (د): وفيما أنزل الله.

[القرآن رحمة وشفاء]

وفيه وفي رحمة الله به وشفائه، وما جعل[1] فيه لكل ذي حكم من أكفائه، ما يقول سبحانه: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝ ﴾ [العنكبوت:٥١]. فمن لم يكتف بضيائه فلا كُفي، ومن لم يشتف بشفائه فلا شُفي، ففيه شفاء كل داء، وبيان كل قصد واعتداء، فلا يعرض عنه أبداً مهتد، ولا يصد عنه إلاّ كل معتد، هالك مهلَك، يَأْفكُ وَيُؤْفَك، يفتري على الله الإفك والزور، [2] ويؤثر على اليقين بالله الغرور، فهو أبداً التائه المغرور، وقلبه فهو الخراب البور، [3] الذي لم يعمر بهدى الله منه معمور، ولم يسكنه من أنوار حكمة الله نور.

أوَ ما سمع - ويله - قول الله جل جلاله، عن أن يحويه قول أو يناله: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة:٤٨]، فكفى بهذا على من أعرض عن كتاب الله بياناً وبرهاناً واحتجاجاً.

وأين بمن عرف الله وحكمته؟ وإحسانه بتتريل[4] الكتاب ونعمته، عن كتاب الله وتتريله، وما فيه من فرقان الله وتفصيله، وهل يذهب عنه إلا عمي[5] القلب مقفله؟! لا يتدبر حكم الله ولا يعقله، كما قال سبحانه: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ۝ ﴾ [محمد:٢٤]، فلا يُسقط أبداً المعرفةَ بما جعل الله في كتابه من النور عن القلوب إلا انقفالُها، ولا ينقفل قلب عما فيه من الهدى إلا بضلال، ولا يترك ما ذكر الله من تدبيره إلا من كان من الضُّلاّل، فأما من نوَّر الله قلبه، ورضي عقله ولبَّه،

---

(١) في (أ)، و (د): وأشفائه وما جعل. وفي (أ) و (د): وما جعله.

(٢) في (ب) و (ج): والوزر (مصفحة).

(٣) البور: الرجل الفاسد الهالك الذي لا خير فيه.

(٤) في جميع المخطوطات تتريل الكتاب. ولم يتبين معناه، وما أثبته اجتهاد مني، فلعله الصواب، والله أعلم.

(٥) في (ب) و (ج): أعمي.

فلا يعدل بتذكر ما أنزل من الكتاب، كما قال الله سبحانه: ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [البقرة:٢٦٩]، وقال سبحانه في كتابه، وما ذكر الله من نعمه وتذكيره به: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ [ق: ٣٧].

وماذا يا سُبحان الله يريد؟! منْ خَلق الله كلِّهم مُريدٌ رشيدٌ؟ بعد قوله تبارك وتعالى لقوم يسمعون: ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [آل عمران ٨٣]. فأخبر[١] سبحانه عن استسلام من في سماواته وأرضه، لحكمه فيهم وفي غيرهم وفرضه، وأخبرهم عن مرجعهم جميعاً إليه، ليحفظ كل امرئ ما حكم به له وعليه، تعليماً من الله لهم لا كتعليم، وهداية[٢] من الله لهم إلى صراط مستقيم.

فكتابَ الله أعانكم الله ما حييتم[٣] فاحفظوا، وبه هداكم الله ما بقيتم فاتعظوا، فإنه أوعظ ما اتعظ به متعظ، وخير ما احتفظ به منكم محتفظ، لما جعل فيه لحافظه من النجاة، ووهب لمواعظه لمن اتعظ بها من الحياة، فعليه[٤] فاحيوا ما حييتم، وبه فتمسكوا ما بقيتم، وفيه ما يقول لمن كان قبلكم رب العالمين: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ [الأعراف:١٧٠]. فالتمسك به أحسن الإحسان، وحقيقة الإصلاح والإيمان.

[حفظ الكتاب من الضياع]

وهو فكتاب الله المحفوظ الذي لم يَضِعْ منه بمنِّ الله[٥] قطُّ آية، فيضيع[١] بضياعها

(١) في (ج) و (د): وأخبر.

(٢) في (د): وهدى.

(٣) في (أ) و (د): له فاحفظوا.

(٤) سقط من (ب) و (د) و (هـ): فعليه.

(٥) في جميع المخطوطات: بمن بكتاب. ولعلها مصحفة. وفي (د): بمن الله أية قط آية (زيادة).

من الله نور وبيان وهداية، وكيف يذهب منه شيء أو يضيع(١)؟! أو يتوهم أن الله سبحانه له مضيع؟! بعد قوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ [التوبة: ١١٥]. وبعد قوله: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الأنعام: ١٣٠]. وبعد قوله سبحانه: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ [الأنعام: ١٢٦]. فكيف يصح أن يذهب منه شيء وهو صراط الله المستقيم؟! وتبيانه لكل شيء ففيه لعباده هدى وتقويم!

وفيه ما يقول سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، فهل بقي(٢) لأحد من بعده عذر أو مُتلوَّم؟! وكيف يُصدَّق مفترٍ على الله في ضياعه؟!! وقد أمر تبارك وتعالى عباده باتباعه، فقال فيه: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٢]. وقال تبارك وتعالى فيه: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأعراف: ٣].

وقال سبحانه: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأنعام: ١٥٥]. وقد قال قوم مبطلون، عماة لا يعقلون: أن قد ذهب منه(٣) بعضه فافتروا الكذب فيه وهم لا يشعرون!! وقالوا من الافتراء على الله في ذلك بما لا يدرون.

فيا سبحان الله!! أما يسمعوا(٤) لقول الله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩]. وقوله سبحانه: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ

---

(١) في (د): فيضع.

(٢) في (د): أبقا.

(٣) سقط من (ب) و (ج): منه.

(٤) في (ب) و (ج) و (د): ما يسمعوا.

مَّحۡفُوظِۭ ﴿٢٢﴾ ﴾ [البروج:٢١-٢٢].

وكتاب الله فهو الذكر الحكيم، والقرآن المكرم العظيم، فمن أين يدخل عليه[1] مع حفظ الله له ضياع؟ أو يصح في ذلك لمن رواه عن أحد من الصالحين سماع، مع ما كان لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله من الأصحاب، وكان عليه أكثرهم من المعرفة بالخط[2] والكتاب، إن هذا من الافتراء لعجب عجيب، لا يقبله مهتد من الخلق ولا مصيب. فنعوذ بالله من الجهل والعمى، ونسأله أن يهب لنا بكتابه علماً، ويجعله لنا في كل ظلمة مظلمة سراجاً مضياً، ومن كل غُلَّة[3] معطشة شفاءاً وريًّا، فقد جعله رياً من الظمأ لمن كان ظمياً، وضياءاً من العمى لمن كان جاهلاً عميّاً، فهوا البصر المضيء الذي لا يعمى، والرَّيّ الرَّوِي الذي لا يظمأ، فمن رَوِيَ به[4] من الصدى بإذن الله ارتوى، ومن أبصر ما فيه من الهدى سلم أن يضل أو يغوى، بل[5] هو سراج السُّرُج، وحججه فأبلغ الحجج، كما قال الله ذو الحجج البوالغ، والحق المبين الغالب الدامغ: ﴿ قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ [الأنعام:١٤٩]. وقال سبحانه: ﴿ بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الأنبياء:١٨]. فمن عمي عن حججه فلن يبصر، ومن حاجَّ بغيره فلن يظفر[6]، ومن ضل عنه عظم ضلاله، ومن قال بخلافه كذب مقاله، ضياء سراجه ووحيه ساطع لائح، وعزمٌ أمرُه ونهيهُ رحمة من الله ونصائح.

فيه قصص الأمم والقرون، وتفصيل الحكم كله والشئون، يخبر عن السماء والأرض وابتدائهما، وعن الجنة والنار وأنبائهما، وعما فطر من الجن والإنس، وخلق من كل بَدنٍ ونفس، بأخبار ظاهرة جلية، وأُخَر باطنةٍ خفية، إلاَّ عمَّنْ خصَّه الله

---

(١) سقط من (ب) و (ج): عليه.

(٢) في (أ) و (ب) و (ج): بالحفظ. (تصحيف).

(٣) الغلة: العطش.

(٤) سقط من (أ): به.

(٥) في (أ): يظهر.

(٦) سقط من (ب) و (ج): بل.

بمستورها، وأطلعه بمنّه على خفيِّ أمورها، فعنده منها، ومن الخبر عنها، عجائب كثيرة لا تحصي، وعلوم جمّة لا تستقصى، فهو ينظر إليها ويراها، بغير قلب منه يرعاها، فلا يخفى عنه ممَّا أظهر الله به منها خافية، وموهبةُ الله له في نفسه بعلمها من كل علم فكافية، فإن شاء أن ينطق فيها نطق، فأحقَّ في خَبره عنها فَصَدَق، وكان بها وفيها أصدق قائل، وإن سكت عنها سكت غير جاهل، فهو لعلومها قرين، وعلى مكنونها أمين، إن ذُكّر منها بآية رعاها، أو سمعها عن الله وعاها، لا تصمّ[(١)] عنها له أذن ولا يقين، ولا تعمى عنها منه فكرة ولا عين، فهو ينظر إلى ما أرته بيقين قلبه عياناً، كما قال سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ۝٧٣ ﴾ [الفرقان:٧٣].

ليس بمنٍّ الله عليه، ولا مع إحسان الله إليه، بمستكبر عليها، ولا بمصرٍّ فيها، فيكون كمن ذكره الله فيها بإصراره، وإعراضه عنها واستكباره، فقال سبحانه: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩ ﴾ [الجاثية:٧-٩]. ولا كمن ذُكّر بآيات الله فأعرض عنها وظلم، ولم يعلم عن الله منها ما علم، كما قال تبارك وتعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ۝٥٧ ﴾ [الكهف:٥٧]، بل وهبه برحمته ومَنّه وفضله قبول ما جاءت به آيات الله من النور والهدى، فسمعها عن الله بأذن منه واعية، وعلمها من الله بنفس في علمها ساعية، ثم لم يمنعها من أهلها فيأثم، ولم يضعها في غير موضعها فيظلم، كما قال الله لرسوله، صلى الله عليه وعلى أهله: ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥٤ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٥٥ ﴾ [الأنعام:٥٤-٥٥]، ففصل تبارك

---

(١) في (ب) و (ج): لا تصمم له عنها.

وتعالى آياته وبيَّنها لمن يستحق تفصيلها وبيانها من المؤمنين.

[المعرضون عن الذكر]

وقال[١] تبارك وتعالى فيمن أعرض عن ذكره بعد قيام حجته وطغى وتعدى: ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ ﴾ [النجم:٢٩-٣٠].

وكما قال عيسى بن مريم، صلى الله عليه وسلم: ((لا تمنعوا الحكمة أهلها فتظلموهم، ولا تبذلوها لمن لا يستأهلها فتظلموها، ولا تطرحوا كرائم الدُّر بين الخنازير فيقذروها))[٢].

وكما قيل للمتكلم[٣] بالحكمة عند من[٤] لا يعقلها، ويؤثرها فيقبلها، كالمغني عند رؤوس الموتى، [٥] وكذلك من أمات الله قلبه عن[٦] آياته، فلم يقبلها هلكةً وموتاً.

وكما ذكر عن يحيى بن زكريا صلى الله عليه: أنه سارت[٧] طائفة من الزنادقة وأبنائها إليه، يريدون تطهرته ومسألته تعنتاً[٨] وتمرداً، فقال لهم إذ علم أنهم لا يريدون بمسألته الرشد والهدى، عندما طلبوا من ذلك إليه: يا أبناء الأفاعي، ائتوا بثمرةٍ[٩] تصلح

(١) في (أ): فقال له تبارك وتعالى. وفي (د) و (هـ): وقال له تبارك وتعالى.

(٢) نص الإنجيل هكذا: (لا تعطوا النفوس للكلاب، ولا تطرحكم دركم قدام الخنازير، لئلا تدوسها بأرجلها وتلتفت فتمزقكم). إنجيل متى الإصحاح السابع/٦ ٧.

(٣) في الأصل و (د): قيل المتكلم.

(٤) في جميع المخطوطات: عمن، ولعلها مصحفة، والصواب ما أثبت، والله أعلم.

(٥) هذا مثل معروف يقال للذي يتكلم عند من لا يفهم.

(٦) في (أ) و (د): من.

(٧) في جميع المخطوطات: صارت. ولعل ما أثبت هو الصواب. والله أعلم.

(٨) في (أ) و (د): تعبثاً.

(٩) في (أ) و (ب) و (ج) و (هـ): بتمرة.

للتَّطهر والتَّزكِّي(١)، وأبى صلى الله عليه أن يطهرهم، إذ عرف كفرهم(٢) وأمْرَهم، فكتاب الله أولى ما أُعز وأُكرم، (٣) إلا عَمَّن آمن بالله واستسلم، فأما من أعرض عنه وتمرد عليه، (٤) فحقيق بأن لا يعلم بسرٍ من أسرار حكمة الله فيه.

ومن قبل مصير كتب الله إلينا، (٥) ومَنِّ الله بتتريله علينا، ما صار من الله إلى السماوات ودار بين أكنافها، وشهد بتتريله من ملائكة الله(٦) جميع أصنافها. ومن(٧) قبل مَنِّه علينا به مَنَّ على الملائكة بعلمه، وما وهبهم من سماع حكَمه، وفي ذلك من شهادتها(٨) وبيانه، وما نزل الله منه في فرقانه، (٩) ما يقول سبحانه: ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ ﴾ [النساء:١٦٦]، فكفى بهذا الحكم لكتاب الله والحمد لله تبييناً وتوكيداً، وفيه حجة وبياناً، وعليه دلالة وبرهاناً، فأين يُتاهُ بمن غفل عنه؟!! وهل يجد واجد أبداً خلفاً منه؟!.

كلا لن يجده، ولو جَهِدَه جُهدَه! نزل به من الله سبحانه روح القدس، شفاءً من المؤمنين لكل نفس، فزادهم به إلى إيمانهم إيماناً، ووهبهم به بصيرة وإيقاناً، وجعله الله(١٠) عمىً ورجساً، لمن كان عمياً نجساً، كما قال سبحانه: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ

---

(١)في (ب) و (ج) و (هـ): للتطهرة. ونص الرواية عن يحى بن زكريا عليه السلام: وكان يقول لجموع الذيـن خـرجوا يعتمدوا منه يا أولاد الأفاعي مَنْ أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي، فاصنعوا أثماراً تليق بالتوبة. إنجيل لوقا الإصحاح الثالث ٧ ــ ٨.

(٢) سقط من (ب) و (ج) و (د) و (هـ): أمرهم.

(٣) في (ب) و (ج) و (هـ): وكرم.

(٤) سقط من (ب) و (ج) و (هـ): عليه.

(٥) سقط من (أ) و (ب) و (ج): إلينا.

(٦) سقط من (ب) و (ج): الله.

(٧) سقط من (أ) و (د): من.

(٨) في (أ) و (د): شهادته. والضمير في شهادتها عائد على الملائكة.

(٩) في (ب) و (ج): منه وفرقانه.مصحفة.

(١٠) سقط من (أ): الله. وفي (د): الله منه عمى.

إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [التوبة:١٢٤-١٢٥]. فجعله الله لأعدائه ولمن لم يقبله وعَمي عنه رجساً وتباراً، كما قال سبحانه: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [الإسراء:٨٢].

﴿ كِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ [فصلت:٤١-٤٢]. فكتاب الله إمَام لكل مهتد من خلق الله رشيد، أعزَّه الله[١] عن الوهنِ والتداحض فلا يتصلان به أبداً، ومنعه من أن يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه إذ حفَّه بالنور والهدى، فنوره وهداه مقيمان أبداً معه، مضيئان مشرقان لمن قَبله عن الله وسمعه، ساطع فيه نور شمسهما، [٢] بَيِّنٌ هداه ونوره لملتمسهما، لا يميلان بمتبع لهما عن قصده، ولا يمنعان من طلب رشدهما عن رشدهٰ، بل يدلانه على المراشد المرشدة، ويقصدان به الأمور المعدة، [٣] التي لا يشقى أبداً معها، ولا يضل أبداً من اتبعها، فرحم الله امرأً نظر فيه فرأى سعادته ورشده وهداه، فجانب شقوته وغيَّهُ ورداه، قبل أن يقول في يوم القيامة مع القائلين: ﴿ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [المؤمنون:١٠٦]. فضلال من ترك كتاب الله لا يَغبَى، [٤] إلا على من لم يهبه الله عقلاً ولُبًّا، كتابٌ نزله[٥] الله الرحيم الأعلى، برحمته من فوق السماوات العلى، فأقر في أرضه قراره، وبثَّ في عباده أنواره، فنوره ظاهر لا يخفى، وضياءه زاهر لا يَطفَا، مشرقٌ[٦] نوره بالهدى يتلألأ، كما قال سبحانه تبارك وتعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [التوبة:٣٢]. فأبى الله سبحانه إلا تمامه فتم، وخاصم[٧]

---

(١) سقط من (ب) و (ج): الله. وفي (أ) و (د): الله من.

(٢) في (ب) و (ج) و (هـ): شمسها (مصفحة).

(٣) في (ب) و (ج): المستعدة (مصفحة).

(٤) لا يغبى: لا يخفى.

(٥) سقط من (ج): كتاب. وفي (ج): أنزله.

(٦) في (ب) و (ج) و (هـ): نوره مشرق (زيادة).

(٧) في (ب) و (ج): إلا إتمامه. وفي (ب): من خاصم (مصفحة).

به من هُدي لرشده من خلقه فخصم، برهانه منيرٌ مضيءٌ، وتبيانه مسفر جلي، فهو من إسفاره وتبيانه، وهداه ونوره وبرهانه، كما قال الله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿١٧٥﴾ ﴾ [النساء:١٧٤-١٧٥].

فمن اعتصم بنور كتاب الله وبرهانه، واتبع ما فيه من أموره وتبيانه، أدخله الله كما قال سبحانه مدخلاً كريماً، وهداه به كما وعد صراطاً مستقيماً، ومن أبصر به واهتدى، لم يعمَ بعده أبداً، ومن عمي عنه فلم[1] يرَ هداه، وتورط من غيّه ورداه، في بحورٍ ذات لجٍّ من الجهالات، وتخبط في غور لجج من الضلالات، لا يخرج مَنْ تورط فيها من ضيق غورها، ولا ينجو غريق بحورها، من نار[2] تبوها، وحيرات سهوبها[3]، فلا صريخ له[4] فيها ينقذه من تبٍّ، ولا هاد[5] يهديه منها في سهب، فهو في[6] لج بحورها في تبوب، ومن ضلالات غورها في سهوب، متحيِّر بينَ هلكة وثبور، وضلال حيرة في ظلمة[7] وبحور، موصول ضلاله وعماه، بما هو فيه من عاجلته ودنياه، بعمى من الآخرة لا يبيد،[8] بل له فيها البقاء أبداً والتخليد، كما قال سبحانه: ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الإسراء:٧٢]، فمن لم يستدل على أمر دنياه وآخرته بكتاب الله فلن[9] يصيب عليه أبداً دليلاً، ومن لم

(١) في (ج): فلن.

(٢) في (أ): من ثارات تبوها (مصفحة) والتّبوب: المهلكة. وفي (ج): من نارات، وحيران. وفي (د): ثارات تنوبها وحيران.

(٣) السهوب: الفلوات.

(٤) سقط من (ج): له. والصريح: المنقذ.

(٥) في (ج): تبب. وفي (أ) و (د): ولا هادي له.

(٦) سقط من (ج) و (د): في.

(٧) سقط من (أ): ظلمة و.

(٨) في (ب): لا تبديل (مصفحة).

(٩) في (أ): فلم.

ينج به من خبوت[١] الحيرة والجهالة، ويحيى بروحه من موت العمى والضلالة، لم يزل لسبيل الجهل سالكاً، وبموت العمى والضلال[٢] هالكاً؛ لأن الله جعله روحاً من موت الضلالة محيياً، وضياءاً من ظلم الجهالة منيراً مصحياً، [٣] فمن أحياه الله بروحه فهو الحيّ الرضي، وما كان فيه من حق فهو المصحي المضيء، لا تلتبس به الأغاليظ، ولا تشوبه الأخاليط، فهو النقي المحض، والجديد أبداً الغضّ، لا يُخلقُ جدَّته تكرار، ولا يدخل محضه الأكدار، بل نقي من[٤] ذلك كله فصفى، فأغنى بمَنِّ الله وكفى، فليس معه إلى غيره حاجة ولا فاقة، ولا يغلب حجته من ملحد فيه لدد[٥] ولا مشآقّة.

بل حججه الحجج الغوالب، وشهبُ نوره فالشهب الثواقب، التي لا يخبو أبداً ضوء[٦] نورها، ولا يخرب أبداً عمارة معمورها، فيخبو بخبوِّها، نور ضوِّها، ويخرب لو خربت لخرابها، [٧] نعمة الله وهَّابها، [٨]، فيكون خرابها تغييراً[٩] لها ولنعمة الله فيها، ولما جعله من[١٠] هداه مضموماً إليها.

ولن يغيرِ الله نعمة كما قال عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد:١١]، ولن يلتبس شيء من هدى الله عليهم أبداً إلا بتلبيسهم، كما قال سبحانه: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الأنفال:٥٣].

---

(١) في (أ) و (د): خبوب الحيرة. وفي (ج): حياة الحيرة. وفي (ب): حيرة، والخبوت: ما اتسع من بطون الأرض.

(٢) في (ب): والضلالة.

(٣) في (ب) و (د): مضحياً.

(٤) في (ج) و (د) و (ب): الإكثار (مصفحة). وسقط من (أ) و (د): من ذلك. ومن (ب): من.

(٥) اللدد: الخصومة.

(٦) سقط من (ج): ضوء.

(٧) في (د): بخرابها.

(٨) في (أ): وبرهانها. وفي (ج): جعائها.

(٩) في (ج): خربها تعديد الهاء (مصفحة).

(١٠) في (ب) و (هـ): في.

وفي التلبيس عليهم بتلبيسهم، وما وكلهم الله إليه في ذلك من أنفسهم، ما يقول الرحمن الرحيم: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝ ﴾ [الأنعام:٨-٩].

وفي كتاب الله وترافده، وتشابهه[١] في البيان وتشاهده، ما يقول سبحانه فيه، وفيما جعله من ذلك عليه: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۝ ﴾ [الزمر:٢٣].

فهل بعد هذه الآية وبيانها لملحد - أنصف نفسه - في كتاب الله من حيرة في شك أو إلحاد؟! لو لم يسمع فيه غيرها، إذاً[٢] هو فهمَ تفسيرها، فكيف بما ثنّى[٣] الله في الحجة لذلك من المثاني، وكرَّر على ذلك من شواهد البرهان، التي فيها من الحجة والتبيين والإتقان،[٤] ما هو أحق من كل رؤية وعيان، فليسمع سامع لتقرير الله سبحانه لعباده، على الشهادة له[٥] بتنزيله لكتابه، إذ يقول سبحانه فيهم لمن أنكر أنه تنزيل من رب العالمين: ﴿ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ ﴾ [هود:١٣]. فأمرهم[٦] تبارك وتعالى في ذلك بالحشد لأوليائهم، ولكل من قدروا عليه في ذلك من أعدائهم، ممن أنكر من القرآن ما أنكروا، وكفر بالله كما كفروا، فلم[٧] يستجب له في ذلك مجيب، أحمق

(١) في (د): تشاهده، تشابهه في البينات.

(٢) في (ج): إذ.

(٣) في (ب) و (هـ): نبأ.

(٤) في (د): والإيقان.

(٥) سقط من (ب) و (هـ): له.

(٦) في (ب): فأمرهم في ذلك. زيادة.

(٧) في (ب) و (ج) و (د): فلم يستجب في ذلك له مجيب.

منهم ولا لبيب، وانحسروا[١] عن الجواب له قاصرين، وغُلبوا بمنِّ الله صاغرين، ولو وجدوا على ذلك قوة، [٢] لأجابوا فيه - مسرعين - الدعوة، ولو كان[٣] ما جاء به بشرياً، لكان بعضهم عليه قوياً، لتشابه البشر، في القول والنظر، [٤] والهيئات والصور.

ولعلم[٥] الله بعجزهم عن أن يأتوا بسورة واحدة من سُوَرِه، أو بشيء مما جعله فيه من هداه ونوره، ما يقول أرحم الراحمين، لرسوله وللمؤمنين: ﴿ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [هود:١٤]، فهل بعد هذا من تقرير أو برهان أو تبصير لقوم يعقلون؟!

ومن ذلك ومثله، ما يقول سبحانه لرسوله، صلى الله عليه وعلى أهله: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء:٨٧] [٦]، فكفى بهذا ومثله وبأقل أضعاف منه والحمد لله تعريفاً وتقريراً[٧].

وفيما برَّأ الله كتابه من الإختلاف والتناقض، وما خصَّه به[٨] من الحكمة والبعد من التداحض، [٩] ما يقول سبحانه: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [النساء:٨٢]، فهو الذي برَّأه الله من كل تناقض واختلاف وطهره تطهيراً، فلم ينظر بعين قلب مبصرة، ولا تمييز نفس زكية[١٠] مطهرة، مَن خفي عنه أن تنزيل الكتاب، لا يمكن أن يكون من غير رب الأرباب، لعجز كل مَنْ سوى

---

(١) الإنحسار: الإنكشاف. والمراد هنا: العجز.

(٢) في (أ) و (د): حجة.

(٣) في (ب) و (هـ)، ولكان ما جاء به بشرياً (مصحفة). وفي (ج): لو كان من جاء به بشراً.

(٤) في (ج): والبطر.

(٥) في (ب) و (هـ): لعلم.

(٦) في (ب) و (هـ): وكفى.

(٧) في (ب) و (هـ): لله تقريراً وتعريفاً.

(٨) في (ج): الله.

(٩) التداحض: البطلان.

(١٠) سقط من (ج): زكية.

الله عن أن يأتي من آياته بأية، ولو عني بذلك وفيه[١] بكل جهد وعناية، لامتناع ذلك وعَوَزه[٢] وارتفاعه عن ذلك وعزه، [٣] عن أن ينال نائلٌ[٤] ذلكً أبداً منه، وأن يصاب أبداً إلا بالله وعنه.

فوالله ما ينال ذلك في ظاهره وعليِّه، وبيِّنه الذي لا يخفى وجليِّه، فكيف بما فيه من الأسرار والخفايا؟! وما خُبِّئ فيه لأولياء[٥] الله من الخبايا؟!

كيف بما في حواميمه؟! من غرائب حكَمه، وما في طواسينه، من عجائب مكنونه، وما في ﴿ قٓ ﴾، و ﴿ طه ﴾، و﴿ يسٓ ﴾، من علمٍ جمٍّ للمتعلمين، [٦] وفي كهيعص وألم والذاريات، [٧] من أسرار العلوم الخفيات، وما في المرسلات والنازعات، من جزم[٨] أنباء جامعات، لا يحيط بعلمها المكنون، إلا كل مخصوص به مأمون، فَسرُّ ما نزل الله سبحانه من الكتاب، فخفيٌّ على كل مستهزئ لعَّاب.

وأسراره برحمة الله لأوليائه فعلانية، وأموره لهم فظاهرة بادية، فهو الظاهر الجلي المجهور، والباطن الخفي المستور، وهو[٩] بمنِّ الله المصون المبذول، والجَزْمُ[١٠] الذي لا يدخل شيئاً[١١] منه هذرٌ ولا فضول، بل قرنت[١٢] فيه لأهله مجامع كَلمه، وسهِّلت به لهم مسامع حكمه، فقرعت من قلوبهم مقارع، ووقعت من أسماعهم مَواقع، لا يقعها

(١) سقط من (ب): بذلك و. وفي (ج): ولو عني بذلك بكل وجهة وعناية.

(٢) في (د): بامتناع. وفي (ب): وغوره. وفي (هـ): وغيورة (كلاهما مصحفة).

(٣) في جميع المخطوطات: عن ذلك وارتفاعه، وما أثبت فهو اجتهاد. والله أعلم. وفي (د) و (هـ): وعسره.

(٤) في (ب) و (هـ): قائل (مصفحة).

(٥) في (أ): لأوليائه الله. وفي (د): وما خبيء فيه لأولياء الله الخبايا.

(٦) في (أ) و (د): للعالمين.

(٧) في (ج) و (د): والرآيات. وفي (ب): والربات. مصحفة.

(٨) في (ب) و (هـ): حزم.

(٩) في (أ): فهو.

(١٠) في (ب) والحَرَم.

(١١) في (أ) و (د): شيء.

(١٢) في (د): قربت.

من غيرها عندهم واقع، ولا يسمع بمثل تفسيرها أبداً منهم[١] سامع، فمن أبى ذلك، وأنكره أن يكون كذلك، فليأت بمثل سورة كبيرة، من سوره[٢] أو صغيرة، فلن يفعل ولو أجلب بالخلق كلهم أبداً، ولن يزداد بذلك لو كان كذلك من أن يأتي بمثلها إلا بعداً، كما قال الله سبحانه: ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [البقرة:٢٣-٢٤].

وفي الكتاب والقرآن، وما جعل الله فيه من البيان، ما يقول سبحانه لرسوله، صلى الله عليه وعلى آله: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾ ﴾ [القيامة:١٦-١٩]. فما على الله تبارك وتعالى بيانه، فلن تضل عنه أبداً حجته ولا برهانه.

وفي تعجب مستمعة الجن به[٣] وما سمعوا عند استماعهم[٤] له من عجبه، ما يقول سبحانه لرسوله، صلى الله عليه وعلى آله: ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ ﴾ [الجن:١]، فجعله تبارك وتعالى لهم عجباً معجباً[٥].

وأيّ عجب أعظم، أو حكمة أحكم، أو كتاب أعلى وأعزّ، وأحفظ من كل ضلالٍ وأحرز، لمن[٦] كان من أهله، أو مُنَّ عليه[٧] بتقبله، عند من يفهم أو يعقل، أو يفرقُ بين الأمور فيفصل، من حكمة الله في تتريله ووحيه، وما جعل فيه من ضلال عدوه وهدى وَلِيِّه، وهو أمر من أمور الله واحد، يضل به الضال ويرشد عنه الراشد، فهو ضلالٌ لمن ضل عنه، وهدى ورشدٌ لن قبل منه، ونجاةٌ لمن اتقى ورحمة وبركة،

(١) في (ب): مثل. وفي (أ) و (ب) و (ج) و (هـ): تفسيرها منهم أبداً سامع.

(٢) في (أ) و (ب) و (ج) و (هـ): من سوره كلها أو صغيره.

(٣) في (ج): وفي عجب مستمعة. وفي (ب) تعجب سمعة. وسقط من (د): به.

(٤) في (ج): استماعه لهم.

(٥) سقط من (أ) و (د): معجباً.

(٦) في (ب) و (هـ): ولمن.

(٧) سقط من (ج): عليه.

وخزي على[1] من تعدي ونقمة وهلكة، كما قال سبحانه: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ ﴾ [البقرة:١-٣].

وفي بركة[2] كتاب الله وما أمر به[3] من تدبره، وما وهب لأولي الألباب من الذكر به، [4] ما يقول سبحانه: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٢٩ ﴾ [ص:٢٩].

فنحمد الله رب الأرباب، على ما وهب من الهدى بما نزَّل من الكتاب، ونسأله أن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هداها، [5] وأن يمتعنا فيه بما وهب لنا [6] من هداها، وأن يجعلنا له إذا قُرئ من المستمعين بالإنصات، وأن ينفعنا بما نزل فيه من الآيات، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، عليه توكلنا وهو رب العرش الكريم.

تم المديح الكبير، بمنِّ الله العالم القدير.

وصلى الله على رسوله سيدنا محمد النبي وعلى آله الطيبين، وسلم تسليماً كثيراً.

---

(١) سقط من (ج): على.

(٢) في (د): وفي تركه. وفي (هـ): وفي بركه (كلاهما مصحفة).

(٣) سقط من (ج): به.

(٤) في (ج): من التذكر به.

(٥) في (ب) و (د) و (هـ): هدانا.

(٦) في (ب) و (ج) و (د): يمتعها. وفي (هـ): يمنعنا. وفي (أ) و (ج): لها.